

كيف اكتشف الرحالة المسلمون العالم؟.. شهادات تاريخية تكشف نظرتهم للشعوب بين الإنصاف والانحياز



الثلاثاء 30 يونيو 2026 10:20 م

لم تكن رحلات المسلمين عبر التاريخ مجرد تنقلات جغرافية أو مغامرات فردية، بل تحولت إلى مشروع معرفي واسع أسهم في رسم صورة دقيقة للعالم المعروف آنذاك، وسجل ملامح الشعوب المختلفة وعاداتها وثقافتها ومعتقداتها، في وقت كانت فيه مساحات واسعة من الكرة الأرضية لا تزال مجهولة بالنسبة لكثير من الحضارات

فقد جاب الرحالة المسلمون الصحارى والبحار والأنهار، ووصلوا إلى أقصى الشرق في الصين، وإلى بلاد الروس والصقالية شمالاً، وإلى سواحل أفريقيا وجزرها، كما زاروا أجزاء واسعة من أوروبا والهند وآسيا الوسطى، تاركين وراءهم مؤلفات أصبحت لاحقاً من أهم المصادر التاريخية والجغرافية التي اعتمد عليها المؤرخون والباحثون

ورغم اختلاف دوافع تلك الرحلات بين التجارة والدبلوماسية والدعوة الدينية وطلب العلم، فإنها أفرزت تراثاً ضخماً لا يقتصر على وصف المدن والطرق، بل يمتد إلى دراسة الإنسان نفسه، وهو ما جعل عدداً من الباحثين الغربيين يعتبرون هذا التراث من أوائل المحاولات العلمية لفهم "الآخر".

الرحلة بوابة لاكتشاف الشعوب

كان الرحالة المسلمون ينطلقون في أسفارهم مدفوعين بأهداف متعددة، فمنهم السفراء والمبعوثون الرسميون، ومنهم التجار والعلماء والحجاج والدعاة، إلا أن القاسم المشترك بينهم كان الحرص على تدوين كل ما يشاهدونه

وقد ساهمت هذه الرحلات في توسيع المعرفة الجغرافية للعالم، حيث نقل أصحابها أوصاف المدن والجزال والأنهار والطرق التجارية، كما وصفوا الشعوب بلغاتها وعاداتها ودياناتها وأنظمة حكمها، وهو ما جعل مؤلفاتهم مرجعاً أساسياً للمؤرخين والجغرافيين

ووصل المسلمون إلى مناطق بعيدة شملت سواحل المحيط الهندي، وبلاد الترك والروس وسيبيريا، كما جابوا أجزاء واسعة من أوروبا التي أطلقوا عليها أسماء متعددة، إضافة إلى معرفتهم الواسعة بأفريقيا الشرقية والغربية وبلاد السودان

التجارة صنعت حضارة مفتحة

أسهم النشاط التجاري الإسلامي في تعزيز الانفتاح على الحضارات الأخرى، إذ أصبحت مدن مثل بغداد والبصرة والقاهرة مراكز عالمية تستقبل التجار من مختلف أنحاء العالم

ومع انتقال البضائع، انتقلت كذلك الأفكار واللغات والعادات، فتكوّنت بيئة ثقافية متعددة الأعراق، انعكس أثرها بوضوح في كتابات الرحالة الذين تعاملوا مع الشعوب المختلفة باعتبارها موضوعاً للدراسة والمعرفة

وقد ساعدت هذه البيئة على ترسيخ فكرة أن الحكمة ليست حكراً على أمة دون أخرى، وأن التعرف إلى الشعوب المختلفة يمثل جزءاً من بناء المعرفة الإنسانية

ابن فضلان شاهد عيان على حياة الروس والصقالية

يُعد أحمد بن فضلان واحداً من أشهر الرحالة المسلمين، بعدما أوفده الخليفة العباسي المعتذر إلى بلاد الصقالبة في القرن العاشر الميلادي استجابة لطلب ملك بلغار الفولغا بإرسال من يعلمهم أحكام الإسلام

استغرقت رحلته قرابة عام، قطع خلالها آلاف الكيلومترات عبر العراق وإيران وآسيا الوسطى وصولاً إلى نهر الفولغا، وسجل خلالها مشاهدات دقيقة عن الشعوب التي التقاها

ووصف ابن فضلان حياة الأتراك والروس والصقالبة بتفاصيل غير مسبوقة، متناولاً عاداتهم الاجتماعية وطقوس الزواج والدفن وأساليب الحكم والعقوبات، كما نقل أوصافاً دقيقة لمراسم حرق جثث زعماء الروس، وهي الرواية التي لا تزال حتى اليوم من أهم المصادر التاريخية لدراسة الطقوس الجنائزية عند الفايكنج والروس القدماء

بين الدقة والانطباعات الشخصية

امتاز ابن فضلان بقدرته الكبيرة على تسجيل التفاصيل اليومية، إلا أن كتاباته لم تخلُ من الأحكام الشخصية التي تأثرت بخلفيته الحضارية والدينية

فقد وصف بعض الشعوب بالقسوة أو الوحشية، وانتقد كثيراً من عاداتهم التي رآها مخالفة للشريعة الإسلامية أو لآداب المجتمع العباسي، كما عبّر عن دهشته من اختلاف لغاتهم وطرق معيشتهم

ورغم ذلك، فقد نقل معلومات ثمينة عن أنظمتهم الاجتماعية، ودياناتهم الوثنية، وعاداتهم الصحية، وأساليبهم في إدارة شؤون الحياة، وهو ما منح رحلته قيمة علمية كبيرة

من الوصف إلى الدراسة العلمية

شهد القرن الرابع الهجري تطوراً ملحوظاً في منهج دراسة الشعوب، مع ظهور مؤرخين وموسوعيين مثل المسعودي وأبي الريحان البيروني، فلم يعد الهدف مجرد تسجيل المشاهدات، بل أصبح تفسير الظواهر وتحليلها ومقارنتها، مع محاولة فهم أسباب اختلاف العادات والتقاليد بين الأمم

وتحول الإنسان نفسه إلى محور الدراسة، وهو ما جعل بعض الباحثين المعاصرين يعتبرون مؤلفات المسعودي والبيروني نواة مبكرة لما يعرف اليوم بعلم الأنثروبولوجيا والجغرافيا البشرية

المسعودي: مؤرخ العالم القديم

امتدت رحلات المسعودي إلى الهند والصين وشرق أفريقيا وبلاد فارس والشام ومصر، وجمع في مؤلفاته بين التاريخ والجغرافيا والفلك والسياسة، وكان يؤكد أن هدفه الأساسي هو نقل أخبار الأمم كما هي، بعيداً عن التعصب أو الانحياز، مع الحرص على الاستفادة من تجارب مختلف الحضارات

ورغم أنه نقل أخباراً عن شعوب مختلفة، فإنه لم يكتف بوصف عاداتهم، بل حاول تفسيرها وربطها بالبيئة والمناخ والظروف السياسية والاجتماعية، وهو ما مثّل تطوراً مهماً مقارنةً بمن سبقوه

البيروني: رائد فهم الآخر

أما أبو الريحان البيروني فقد قدّم نموذجاً أكثر تطوراً في دراسة الحضارات، خاصة في كتابه الشهير عن الهند، الذي يُعد من أهم الدراسات التي تناولت المجتمع الهندي في العصور الوسطى

حرص البيروني على تعلم اللغة السنسكريتية، وقراءة الكتب الهندية من مصادرها الأصلية، كما أكد مراراً أن هدفه ليس الجدل أو الطعن، وإنما نقل معتقدات الهنود كما يفهمونها

وسعى إلى تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية تفسيراً علمياً، مثل تحريم ذبح الأبقار، معتبراً أن الأمر يرتبط بأهميتها الاقتصادية في الزراعة والنقل والإنتاج، وليس مجرد اعتقاد ديني فقط

منهج علمي سبق عصره

تميّز البيروني بوعي واضح بمشكلات البحث العلمي، فحدّر من الانحياز، والتعصب، ونقل الأخبار دون تمحيص، كما شدد على أهمية المعاينة المباشرة، وتعلم لغة الشعوب، وفهم ثقافتها من الداخل

وأشار إلى أن الباحث قد يقع في الخطأ إذا نظر إلى مجتمع آخر بعين ثقافته الخاصة فقط، وهو مبدأ أصبح لاحقاً من أهم أسس الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة

كما دعا إلى تحزّي الصدق، والتعميز بين الروايات الصحيحة والأساطير، وعدم إطلاق الأحكام قبل فهم الظروف التي نشأت فيها العادات والتقاليد

بين الإنصاف والانتحياز

تكشف مؤلفات الرحالة المسلمين أن نظرتهم إلى الشعوب الأخرى لم تكن واحدة؛ فقد اختلط فيها الإعجاب أحياناً بالاستغراب، والإنصاف أحياناً بالأحكام المسبقة □

غير أن القيمة الكبرى لهذا التراث تكمن في أنه حفظ تفاصيل دقيقة عن أعم وثقافات اندثرت أو تغيّرت مع الزمن، وأسهم في بناء معرفة واسعة بالعالم قبل قرون طويلة من نشأة العلوم الإنسانية الحديثة □

وتبقى مؤلفات ابن فضلان، والمسعودي، والبيروني شاهداً على مرحلة ازدهار معرفي جعلت من الرحلة وسيلة لفهم الإنسان، وليس مجرد وسيلة لاكتشاف الجغرافيا، ورسخت فكرة أن دراسة الآخر تبدأ بالمشاهدة، ثم الفهم، وأخيراً تفسير الاختلاف بعيداً عن التعصب والانغلاق □